

المعنى بين التوحيد والتعدد والتبدد

الأستاذ: مسعود كلالي

جامعة أدرار - الجزائر

إن البحث في المعنى يتطلب إلماماً عميقاً بمختلف المعارف والفنون والآداب والثقافات، وتعد محاولة التنظير للمعنى أو تحجيمه في نظرية قصوراً في التصور لعالم المعاني، فهي تتوالد وتتناسل وتغمض، وتتعدد، وتتضح، وتتهيم، بحسب مزاج وثقافة من يؤلفها أو يهتدي إليها أو يركبها أو يبدعها، وهي تتوقف على تصورها وتصور الهيئة التي تكون عليها أو ترد، والإشكال في المعنى ليس فيها هي، إنما في الوصول إليها أو إدراكها وعلى الحالة المزاجية والمكنة الثقافية لمن يقاربها وهي ممتدة إلى غير نهاية، فضلاً عن المعاني الكونية التي تتكشف يوماً بعد يوم بفضل تقدم المعارف والتكنولوجيا والتقدم العلمي، وكذلك المعاني في مجالات أخرى كالآداب فهي دائبة التحول وقابلة للتطور والتغير وفق المرجعيات الفلسفية والثقافية والفكرية والاجتماعية والدينية والنقدية، وكذلك الشأن بالنسبة للمعاني الصوفية التي لا تدرك إلا بالرمز أو الإشارة لأن التصوف هو علم الإشارة ففيه تكون المعنى مستغلقة على عامة الناس ومنفتحة على أهل العرفان، أو بالأحرى على بعض منهم، والتأويل بين المتصوفة أنفسهم هو أصل الخلاف بينهم وبين أصحاب الشريعة أهل الظاهر، وبسبب هذه المعاني وتأويلها، أتهم بعض المتصوفة وأعدموها على فهم ظاهراً أقوالهم أو شطحاتهم، وفي الجملة لا ينبغي الركون إلى من يقول بنظرية للمعاني.

Abstract.

The Meaning between Singularity, Multiplicity and Dissipation

The research in meanings requires a deep and insightful familiarity or knowledge in different arts and cultures. The attempt to theorizing or sizing the meanings in a theory is considered as an insufficiency of the meaning perception. They breed, reproduce, ambiguity, get complicated, vague or opaque depending on the author's mood and culture or who they are guided by and mounted or created them. They depend on their perception and their state of visualization, and the problem is not in meanings themselves, but in how to interpret, reach or create them, and the issues in meanings depend also on the mood and the cultural dimensions, and meanings are extended to the infinity. In addition, cosmic meanings which are unfolding day after day thanks to knowledge, scientific and technological progress, and also meanings in other fields such as letters are in permanent shift and transferable according to philosophical, cultural, cognitive, social, critical and religious references. Similarly to the Sufi meanings which cannot be perceived only by symbols or signs, because the Sufism is a sign science impenetrable for general public and

المعنى بين التوحد والتعدد والتعدد

accessible for mystic people, or rather on some of them, and the interpretation among sufists themselves is at the origin of the dispute causes a dispute among them and people of Echariaa (who believe in the apparent). Owing to these meanings and their interpretations, some sufists were accused and executed because of their interpretation meanings, their apparent understanding and exaggerations. In a sentence, we should not rely on who believes in theory of meaning.

المعنى عند أصحاب المعاجم الفلسفية هو الصورة الذهنية التي وضع بإزائها اللفظ، ويطلق المعنى على ما يقصد بالشيء أو ما يدل عليه القول، أو الرمز، أو الإشارة، ومن ثم رأينا دلالة اللفظ على المعنى والمجاز كما تطلق المعاني على مبادئ علم من العلوم المدونة¹، والمعنى له جانب ذاتي وجانب موضوعي فالذاتي ما انصرف إلى أمور الوجدان، والموضوعي ما تنصرف فيه الألفاظ في دلالتها من المعاني التي تم التواضع عليها بين أفراد المجتمع في أشكال الخطاب، والمعاني منها المشتركة والمبسطة والمجردة ونحو ذلك، والمعنى يتوقف على القصيدة ويتوقف على النية ويتعلق بألفاظه ويتعلق بما هو خارج "نصيته". ولنا مثال من جملة أمثلة نسوقها ههنا، فقصة الخليفة عمر بن الخطاب مع النعمان بن عدي بن نضلة وكان شاعراً وولاه عمر ولاية ميسان بالعراق، وذات مرة نظم أبياتاً ظاهرها ينبئ بأن النعمان كان مولعاً بالخمر ووصفها وقد استغرقت المعاني، وجاشت نفسه بالمشاعر، ونسي الولاية ورسوم السلطة والأبيات التي نظمها هي:²

ومن مبلغ الحسنة أن خليلها * * بميسان يسقى من زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية * * وضاحة تجدو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني * * ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعل أمير المؤمنين يسوءه * * تنادمنّا بالجوسق المتهدم

وحينما بلغت الأبيات الخليفة عمر. عزله من منصبه ثم استقدمه، وكشف النعمان الأمر على حقيقته عندما قال للخليفة، والله ما شربتها قط، إنما هو شعر طفع على لساني وإني لشاعر، بمعنى إنه في حالة من وجد الشاعر لم يتفطن أن الأمر سيأخذ مجرى آخر، فعمر عامل الشعر على أساس ظاهر الأبيات، والشاعر حينما التقى بالخليفة كشف له عن حقيقة نيته، فالمعنى هنا جانب منه في الأبيات والجانب الثاني مكنون في قلب الشاعر أو في وجدانه، وهذا يطرح إشكالا كبيراً أمام جماعة التحليل النفسي الذين يعولون على منطوق الفنان وحده وما دمنّا مع الشعراء فلا بأس أن نثني بأبي تمام وكان هو الآخر إشكالا، في قضية المعاني ومثال ذلك بيته الذي أشكل فهمه على معاصريه، وكذلك شعره الذي استغلق فهمه في عمومته

إرقالها يعصيدها ووسيجها * * سعدانها وذميلها تنومها³

فالشاعر ذكر ضروباً من سير الإبل، وأنواعاً من الكلاً وركب بعضها على بعض. وهو يقصد معنى نفسياً قائماً في ذهنه وذاته بأن صور أصحاب هذه الأظعان لا يريدون التوقف إنما يريدون المضي في سيرهم كما صور أظعانهم تلك وكأنها تفتات من سيرها لا من الكلاً الذي ذكره، وهذا معنى مفارق.

والمعنى إن كان في مثل حال أبي تمام يترتب عليه قدر من الغموض، ويرجع إلى احتمالية المعنى، كأن يذهب إلى أنحاء من الاحتمالات في المعنى كما يقول حاتم القرطاجني (المنهاج). وقصة ي البلاد في التراث العربي محل مفارقة في سياقها الاجتماعي والنفسي وفي تركيب معاني نونيته التي نجتزئ منها الأبيات التالية:⁴

وإني قد لقيت الغول تخدى * * يسهب كالصحيفة صحصهان
ضربت سراتها والبرك منها * * فخرت لليدين وللجبران
وقالت زد فقلت لها وإني * * على أمثالها ثبت الجنان
إذا عينان في وجه قبيح * * كوجه الهر مشقوق اللسان

فأنت إذا توقفت عند ظاهر الأبيات ذهبت في طلب المعنى أو المعاني إلى جهة تصدى الشاعر للغول، والإجهاز عليها بسيفه، وارتباط الأبيات بأسطورة عربية، تفيد بأن الغول إذا ضربتها ضربة واحدة، تنفق، أما إذا ثبتت الضربة فهي تطلب الاستزادة وبها تستجمع قواها وتنقض على الشاعر فتمزقه تمزيقاً، ثم إن المعنى المراد حقيقته من هذه الأبيات ليس هو هذا الذي يبدو ماثلاً أمام أعيننا، إنما المعنى الحقيقي للأبيات هو إقدام الشاعر على قتل سلى، لأن أباه قد زوجه إياها، لما أتم الأجل وكان أجيراً يعرى، لكنه وبعد غيبته رجع إلى الحي وإذا بجارية تبادره بخبر مشئوم بأن سلى قد تزوجت رجلاً آخر، فاستشاط غضباً وأجهز عليها بسيفه في حالة من الهستريا فمزقها إرباً إرباً وشوه خلقها فذلك هو وجهها القبيح، تحول كوجه الهر مشقوق اللسان.

فالمعنى إن نحن رمنا الوصول إليه بمعزل عن القصة والأسطورة لن ندرك إلا ظاهره وقد نزور مما يعني أننا حين نبحث عن المعنى نجده مرتبطاً بجملة من القرائن لا بد من الوقوف عليها ونسيج خيوطها من جديد حتى يتسنى لنا إدراك المعنى أو المعاني المستهدفة.

والمعاني عند حازم القرطاجني هي ما وجد في الأعيان وله صورة موجودة في الأذهان يقابلها صور الألفاظ التي تفضي إلى الأفهام وهو جمع بين اللغة والفكر دل عليه حازم، والمعاني عنده هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الموجودات في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك⁵ إلا أن الإشكال في الإدراك،

المعنى بين التوحد والتعدد والتعدد..... مجلة فصل الخطاب

فالإدراك متوقف على ثقافة ووعي الأديب أو صاحب الخطاب وحالته النفسية واستواء شخصيته أو خللها، وهذا ينسحب من وجه ولا ينسحب من وجه آخر ينسحب حينما يتعلق الأمر بالموجودات العينية ولا يتحقق حينما يتعلق الأمر بتجربة صوفية عرفانية: فإننا ههنا أمام منطق آخر وفهم آخر يتوقف على الباطن ويستدعي الإشارة وسيلة للفهم والإدراك ويرتبط بالذوق أصلاً لأن المقام ليس مقام إدراك بالعقل إنما مقام إدراك بالذوق.

وحديث حازم عن المعاني استدعى منه الخوض في قضية الغموض التي قسمها إلى ثلاثة أقسام:

1. منها ما يرجع إلى المعاني أنفسها
 2. منها ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى
 3. منها ما يرجع إلى الألفاظ والمعاني معاً
- ثم سلك هذه الأقسام في ستة:
1. قد يكون بسبب دقة المعنى المعبر عنه
 2. قد يكون بسبب تشعب المعنى
 3. التضمنين أو الإحالة يكون الكلام قد ضمن معنى علمياً أو خبراً تاريخياً
 4. اختلاف جزئيات الصورة فيه عما ألفته المدارك والأفهام
 5. احتمالية المعنى كأن يذهب إلى أنحاء من الاحتمالات في المعنى
 6. تماثل حاصل في جزئيات الأشياء المختلفة كأن يكون المعنى تضمن أوصافاً قد تشترك فيها معه أشياء في هذه الأوصاف وكلما كانت الأوصاف في مثل هذا مؤتلفة من أعراض الشيء البعيدة لم تهتد الأفكار إلى فهمه إلا بعد بضع⁶.
- لعل مما يؤخذ على حازم وهو يتحدث عن المعاني ويفرع فيها أنه لا يقدم أمثلة شعرية لأي شاعر كما يتداخل كلامه عن المعاني بالمنطق وقد تأثر بأرسطو وبفن الخطابة وبالفارابي وابن سينا⁷ والشعر عنده قائم على التخيل، والخطابة قائمة على الإقناع، وقال الفارابي بأن الأقاويل الشعرية كاذبة بالكل لأنها قائمة على التخيل.
- تبين ذلك من كلامه عن الاستساغة من الكلام الشعري الذي قسمه إلى ستة مذاهب، والاستحسان إلى أربعة مذاهب والصدق إلى ثلاثة مذاهب ثم ذهب إلى القول بأن كل هذه المذاهب الاستساغية والاستحسانية والصدقية يقع في جميع أنحاء الشعر الثمانية.
- تحسين حسن له نظير، وتحسين حسن لا نظير له، وتقبيح قبيح له نظير، وتقبيح قبيح لا نظير له، وتحسين قبيح له نظير، وتقبيح حسن لا نظير له⁸.

وهذه تقسيمات لا محالة منطقية لم نألفها عند النقاد العرب القدامى إنما هي من تأثير المنطق اليوناني في تفكير حازم وهو يخلط بين الصدق والكذب من جهة والشهرة والظن من جهة ثانية إذ ما دخل الشهرة والظن بالصدق والكذب، فالصدق والكذب من التخييل والشهرة أمر يكتسب ويحصل للشاعر من مكانته في الأوساط الأدبية بحكم تفرد في الشعر وتفوقه على أقرانه في مجالس الخلفاء والأمراء وحواضر الأدب، فالصدق لا يضمن الشهرة والكذب كذلك. إلا إذا كانت شهرة مزيفة، وقد أفاض حازم في أقسام المحاكاة مستنداً إلى قول ابن سينا "فظاهر فصول التشبيه ثلاثة" التحسين والتقبيح والمطابقة" وهو كما يقول إحسان عباس إيجاز لقول أرسطو في الرسام أو الشاعر...⁹. وفي المحاكاة التحسين والتقبيح وعلاقتها بأربعة وسائل:

1. أن يحسن الشيء (أو يقبحه) من جهة الدين وأثره في النفس
2. أن يحسن الشيء بمطابقته للعقل أو يقبحه لخروجه على مقتضى العقل
3. أن يحسن الشيء من جهة الخلق أو يقبحه لمنافاته الخلق
4. أن يعلق تحسين الشيء بالناحية النفعية أو يقبحه بالضرر الذي يترتب عليه

وهذه التقسيمات كلها تذكرنا بمباحث المعتزلة التي أفاضوا فيها في الحسن والقبح وهي مباحث تدل على عبقرية المعتزلة في الفكر والأدب والدين إلى أن الأمر المحير في تنظيرات حازم هو كأنه يضع للشاعر قوالب من المعاني يتوجب عليه التقيد بها وإلا فأين فرادة الشاعر في وضع المعاني وصوغها.

أما الجاحظ فحديثه عن المعاني يدل على عمق فهمه للموجودات وأن المعاني التي نحاول حصرها أو محاصرتها في نظرية أو في أطر وقوالب معينة هي من السعة والرحابة بما يتجاوز هذا الفهم تماماً، فالمعاني متعددة تكاد تكون بتعدد أنفس الخلق، والمعاني متعددة بعظمة السموات والأرض وهي معاني كونية ومعاني نفسية وهي مبسوسة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية¹⁰ والمعاني دولة بين صائغها وبين متلقيها والمعنى هو هو إلا أن الاختلاف في طرق الوصول إليها المتوقفة على الفهم، والفهم المتوقفة على ثقافة من يصوغ المعنى ومن يتلقاه وهي شبكة من العلاقات بين المتلقين أنفسهم على درجات متفاوتة، وعلى قدر الطبقات تكون المعاني كما ينزل الرجال منازلهم تنزل المعاني منازلها أيضاً ولذلك قالوا المعاني الشريفة والمعاني السخيفة والمعاني المبتذلة... واختلف في تقييم درجة الشرف ودرجة السخف. هل الشرف قائم في ذات المعاني والسخف متعلق بطبيعتها أم طارئ عليها؟ والمعاني لا محالة متعلقة بالهمم

المعنى بين التوحد والتعدد والتباعد..... مجلة فصل الخطاب

فهمة شريف القوم غير همة عامة الناس، وهي تسلك من بعض الوجوه في سلك الهمم ولها سلم تتدرج فيه صعوداً وهبوطاً، اتساعاً وضيقاً والمعاني مرتبطة بعمر الإنسان وبرؤيته يقول عبد الصبور "إن الشاعر بعد الخامسة وعشرين من عمره في حاجة إلى التحول عن النظر الداخلي..... إلى النظر الخارجي في الكون، والتجربة الشعرية عندئذ جديرة بالآ تصبح تجربة شخصية عاشها الشاعر فحسب بحواسه ووجدانه بل هي تمتد لتصبح تجربة عقلية أيضاً تشتمل على اتخاذ موقف من الحياة والكون....."¹¹

ويتخذ عبد الصبور من الرؤية الكونية مقياس الشعرية الحققة ويعتبرها تاريخ ميلاد الشاعر الحقيقي والشاعر في نظره قبل أن يكتسب هذه الرؤية يكون في مرحلة تعلم الجدية الشعرية.

وللدلالة على أن المعنى أحياناً يكون كالعنقاء فإن الاختلافات في تعريفات الشعر قد تصبح دليلاً على أن المعنى قد يستعصى على من يود محاصرته والقبض عليه تقول "اليزيث درو" وهي تسرد طائفة من تعريفات الشعر "هل استطاع أي شاعر أو ناقد أن يوفق إلى تعريف الشعر؟ إنه ليصعب على المرء أن يصدق أنهم يتحدثون عن شيء واحد"¹²

والشيء ذاته يمكن أن ينسحب على التصوف والمتصوفة وتجاربهم الروحية وهي تجارب كما أجمع الصوفية عليها تستعصى على الوصف وتعلو على التعبير، تقف اللغة الاصطلاحية عاجزة عن الإيفاء بمعاني وأغراض المتصوفة، لأن ما يشاهده الصوفي أو يكشف له من الأحوال من الأمور الذوقية ومما يدل على أن الخلاف بلغ أشده في تعريف التصوف، أن تعاريفه بلغت 65 تعريفاً¹³، مما يفهم منه بأن تعدد التعاريف لم يستطع حسم مسألة الحد ولعله من المغالطة أن ينصرف هم أهل التصوف والمنشغلين إلى إيجاد تعريف جامع مانع للتصوف وهم يقصدون الإحاطة بتجارب الصوفية وحينئذ يكون الاهتمام منصباً على الوقوف على تجارب المتصوفة وكل تجربة قد تملي تعريفاً معيناً، فتعريف التصوف بعدد تجارب المتصوفة فإذا كان المعنى من معاني الصوفية يحتاج إلى الرمز والإشارة في إدراكه والتعامل مع ثقافة ظاهرية بعيدة كل البعد عن عالم الباطن والذوق بقي على تخوم المعنى لا يفهم منه إلا كلمات قد تضلله ولا يجنى منه إلا فقه التضليل، ولنأخذ مثالا على ما نقول كلام الجنيد في إدراك الحقيقة والاختلاف في تقديرها "لا يبلغ أحد درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق"

فالحقيقة في معناها العرفاني هي عند الجنيد محل خلاف حتى عند الصديقين فما بالك بأهل الظاهر فإنهم قوم عجلون يرمون أهل الباطل بالزندقة والكفر ويستبيحون دماءهم كما حصل مع الحلاج وتاريخنا في الحضارة العربية الإسلامية في بعض مواقفه تكفيري دموي

بني على خزائن جماجم الموتى بدأب الفقهاء على تبديع المتكلمين، وبعض الفلاسفة معارضهم أما المتصوفة فقد بدعوا أنفسهم وبدعهم الفقهاء السائرون في ركاب السياسة العباسية.

والمعاني والإشارات بين الصوفية مختلف فيها اختلافا شديدا يحكى عن أي يزيد البسطامي أنه قال "أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحذية وجناحاه من الديمومية فلم أزل أطيّر في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مئة ألف مرة، فلم أزل أطيّر في ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحذية ثم وصف أرضها وأصلها وفروعها وأغصانها وثمارها ثم قال: فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة"

وفي الجملة كأنما المعاني المحصلة ههنا هي عدم أو اخفاء للحقيقة التي يريد أبو يزيد أن يبلغها ويصرف أنظار الخلق عنها بإعدامها وتصويرها هباءً وتوهمًا وحتى هذا الذي نذهب إليه لا نستيقنه وعقب عليه الجنيد مفسراً أما قوله أول ما صرت إلى وحدانيته فذاك أول لحظة إلى التوحيد فقد وصف ما لاحظ من ذلك ووصف أنها في حال بلوغه والمستقر في تناهي رسوخه وهذا كله طريق من طرق المطلوبين بالبلوغ إلى حقيقة علم التوحيد بشواهد معانها منظورا إليها منوهاً بأهلها فيها مرسلين في حق ما لاحظوه مما شاهدوه وليس لذلك إذا كان كذلك غاية كنه يقوى عليه المطلوب به، ولا رسوب في "أرماس" يصيرون إليه بل ذلك على شاهد التأييد فيه، وإيثار التخليد فيما وجدوا منه.

وفي الجملة لخص الجنيد الموقف بقوله إن أبا يزيد رحمه الله مع عظم حاله وعلو شأنه لم يخرج من حال البداية ولم أسمع منه كلمة تدل على الكمال والنهاية¹⁴ والوقت لا معنى له لأن الأوقات في مثل هذه الحال غائبة وإذا مضى الوقت وغاب بمعناه غيب عمن غيب عنه، فعشرو مائة في معنى واحد والمعنى ينداح رطباً ودونه الموت.

وإذا ما وقفنا عند كلام الشبلي وصلته بالحلاج "كنت أنا والحلاج على فكرة واحدة فأنقذني جنوني وأهلكه عقله"¹⁵، فإن المعنى لا يتبين إلا من خلال استعراض سيرة الحلاج وما كان وقع له من بوح وفيض، وبوحه ذلك هو الذي ألب السلطة والفقهاء السائرين في ركبها على إصدار الفتاوى بتكفيره وخروجه من الملة فهو قد باح، والشبلي احتال لنفسه بأن أدخل "البيمارستان" على أنه مريض يستدعي أمره العلاج وما كان علاجه إلا النجاة من الصلب والتنكيل وهو ما يتناغم مع ما قاله ومنصور اليماني وكان ماراً به وهو مصلوب "علمت كما علمنا وبحت وكتمنا فصلبت ونجونا" ويتهم الحلاج بأن كلامه في الطواسين وديوانه الشعري ورسائله تلتقى مع معتقدات القرمطة¹⁶ وهو ما ينفيه عنه "ماسينيون" ثم لا يلبث أن يحاول إلصاق التهمة بالحلاج في صورة سؤال ظاهره رحمة وباطنه عذاب فالمعنى لا يقوم بمفرده إنما

المعنى بين التوحد والتعدد والتعدد..... مجلة فصل الخطاب

يحتاج إلى قرائن توضحه وتجليه وإحالات تعين على فهمه وقصد صاحبه وأمر الحلاج عجب كله "سمعت الحلاج في سوق بغداد يصيح، يأهل الإسلام أغيثوني؟ فليس يتركني ونفسي فأنس بها وليس يأخذ مني نفسي فأستريح منها وهذا دلال لا أطيعه"¹⁷ وكان في حال من فيض الشوق وهو صاحب الحجة الثالثة نهدي الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي:

سكر من المعنى الذي هو طيب * * ولكن سكرى بالمحبة أعجب

سيكون دم تلك المهجة الغالية قد ضاع هدرًا ويكون تيار الجهالة الذي مثله قاتله حامد بن العباس ساد إلى أبد الأبدین ولحامد هذا اليوم تجليات في الأمصار والنفوس والهمم وفي الروح والمهج وفي العرض والقلم وصلب أبي منصور يكبل صاحبه وصلب حامد الجديد اليوم يحيق به الصلب وهو طليق.

التاريخ بمعناه الروحي هو البحث عن المعنى، وصراع الانسان في الوجود صراع معنى، ومعنى الوجود معنى والطروحات الفلسفية للإنسان والوجود بقصد البحث في المعنى واستهدافه وتوظيفه.

أدرك التوحيدي في رسالة العلوم¹⁸ بأن في عصره من يقول ليس للمنطق مدخل في الفقه ولا للفلسفة اتصال بالدين ولا للحكمة تأثير بالأحكام ويكشف التوحيدي النقاب عن سوء فهم في إدراك معاني الأشياء وحدود المعارف وتداخلها وأن المعارف دائرة واحدة وإن بدت في الظاهر مختلفة متبددة.

إن البحث العميق قمين بأن يستبدل بالخلاف وفاقاً وبالمنازعة خلافاً ويرجع سببها التوحيدي إلى سوء التحصيل ومجازفة في القول وانحرافاً عن الصواب.

ولعمري لم أجد فيما قرأت من تراثنا من جلى الغربة ومعانيها والغريب وصنوفه وفتق معانيها تفتيقاً وفجرها تفجيراً وقلبها وقلب معانيها على وجوهها المختلفة وتحدث عنها في جوانبها وفي عرضها وظاهرها قبل الفلاسفة الوجوديين وربط بين غربة الحال وغربة اللسان واستعرض مفهوم المثقف لها وكان في غربته غريباً ومن زعم أنه أدرك الغربة أو أدركته الغربة.

قد قيل الغريب من جفاه الحبيب وأنا أقول بل الغريب من واصله الحبيب بل الغريب من حباه الشريب بل الغريب من نودي من قريب بل الغريب من هو في غربة غريب.

وحيثما نربط غربة التوحيدي بغربة الصوفية، فالصوفية بالنسبة لهم الدنيا دار غربة ولا غربة في ذلك فهو الأصل الذي عنه يصدرن، فطوبى للغرباء..... وعطفاً على ما سبق فلننظر إلى أبي حيان البغدادي وهو يتصرف في معاني الوجد ويصرفها في وجوهها المختلفة حينما يوجه الخطاب إلى صاحبه بقوله: "يا هذا إذا ذكرته فاذكره واجداً به وإذا وجدته فجد

ذكراً له، على أن الذكر وجد أيضاً ولكن من ناحية العبادة، والوجد ذكر أيضاً ولكنه من ناحية الاستفادة، والوجد مستغرق للصفات كلها بالمحو والذكر مستفرش للسمات كلها بالزهو فإذا اصطرع الذكر والوجد كانت الغلبة للوجد¹⁹.

والتصوف كما قال التوحيدي معناه أكبر من اسمه وحقيقته أشرف من رسمه في إشارة إلى استعصاء المعاني وتعقدها والمحو يذكر في سياق الجلال

خلاصة:

إن الحديث عن المعنى قد استأثر باهتمام فئات متعددة في علوم وصناعات وفنون وحضارات والإنسان وجوده بحث في المعنى وطلب منه أن يتأمل في خلق الله فهو بحث في المعنى، والمعنى حينما يكثر الحديث من حوله والاختلاف بشأنه إنما مرد ذلك إلى الإلحاح في طرح قضية الوضوح والغموض اللتين تلازمان المعنى، والغموض عند الشاعر على سبيل المثال قد يكون بسبب ضبابية الرؤية عنده لأن الغموض مطلب من مطالب الشعر الحديث خاصة ويراد به العمق في التصوير والرؤية، ويقع الالتباس أثناء الحديث عن المعنى بين الغموض والإبهام فالغموض عمق والإبهام تعمية لا طائل من ورائها، والمعنى يتوقف على اعتبارات منها تجربة الشاعر ونضجه وتمكنه من المعارف والثقافات وقدرته على استيعابها وتوظيفها في الوجوه التي تعود بالنفع والجمال على الأديب وعلى الحركة الفكرية والاجتماعية والأدبية في المجتمع.

والمعنى قد يقرن بأسطورة أو حكاية شعبية كما هو الشأن في أسطورة "الهامة" التي يشير إليها عرضاً ذو الأصبع العدوني وهو يتهدد وابن عمه ويتوعده

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصي * * أضربك حيث تقول الهامة اسقوني²⁰

البيت وارد في قصيدة طويلة للشاعر في ظلم ذوي القربى لا يمكن إدراك معناها إلا بالعودة إلى الأسطورة التي تقول بأن الرجل إذا قتل فلم يدرك بثأره خرجت هامة من قبره فلا تزال تصبح اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله وهذا ما يسمى في الدراسات المعاصرة للشعر بالنص الغائب²¹ والغموض في المعاني قد يرد إلى محدودية ثقافة المتلقي وهو ما أشار إليه أبو تمام مع أبي العميث على سبيل المثال قوله المشهور ولم لا تفهمون ما يقال؟ وقد ألفينا العرب يؤلفون في المعاني ككتاب العسكري "ديوان المعاني" ويقصد به الموضوعات التي ينظم فيها الشعراء ووزعها على أنحاء مختلفة كموضوع الفلوات، والنباتات، والنسيم، والحرب، تعمية الأشعار والصدقة وهلم جرا..... ولعله يعتبر من الخطأ تصور نظرية للمعنى، أو وضع حدود

المعنى بين التوحد والتعدد والتعدد مجلة فصل الخطاب

للمعنى كما فعل الناقد الانجليزي²² "امبسون" حينما حدد المعنى في سبعة أنماط من الغموض في بحث نشره سنة 1913

- 1- اشتراك بعض الكلمات أو التعبيرات التي يمتزج فيها معنيان أو أكثر في شيء واحد.
- 2- نمط يمكن أن ينتج عن معنيين يحل كل منهما مكان الآخر للكلمة الواحدة.
- 3- يمكن أن يتولد من توحد عدة معان قصد توضيح حالة ذهنية خفية أو معقدة.
- 4- حالة ذهنية غير متكاملة في نفس المؤلف، أي يأخذ المؤلف في اكتشاف فكرة
- 5- ينتج حينما يبدو للقارئ تعارض بين بعض الألفاظ في النص مما يستدعي تفسيرات

متعددة

- 6- هنالك نمط يعكس انقساماً في ذهن مؤلفه لاعتبارات نفسية.

والذي يمكن ملاحظته على تقسيمات (امبسون) للغموض أنه يعلق المعنى على الكلمة المفردة. إلا إذا كان هذا راجعاً لسوء ترجمة كلام امبسون. كما يمكن داء ملاحظة أخرى أن المعنى يمكن أن يتوقف وضوحه وغموضه على مكنة المترجم إن كان الأمر يتعلق بنص يترجم من لغة إلى أخرى، كما حصل مع ترجمة رباعيات الخيام، التي عرفت ترجمتين جيدتين كما أخالهما ترجمة أحمد صافي النجفي كشف اللثام عن رباعيات الخيام، وترجمة أحمد رامي الشاعر المصري ومن الترجمات السيئة للرباعيات ترجمة تونسية عن ترجمة "فيتز جرالذ" الانجليزي التي نشرها في الهند، والذي يمكن أن ينسحب على الترجمة يصدق على التفسير أو التأويل فقد يسيء المفسر أو المؤول حقيقة الوصول إلى المعنى وإدراكه، ومثال إليوت والبياتي يمكن استحضاره هنا فالليوت يتوغل داخل نفسه، منطقياً على استكشافاته السلبية والبياتي يتوغل في العالم ويعتز بعقله، وبقضية الإنسان. أن إليوت ميت أنه يعيش الماضي ويرفض الحاضر ويكفر بالمستقبل²³ ولا شيء ينشده غير الضجر، فكيف تريد من شاعر هذا ديدنه أن يعطي معنى واضحاً أو يفتح عليك نافذة أمل، أو يمكنك من اشرافة خير، فالغموض راجع إلى تعقد شخصية إليوت وإلى نظرتة السوداوية، إنه ملاذ الغموض وموطن تعششه ثم إنه ينبغي ألا يفوتنا أن شخصية الفنان بصورة عامة إذا لم تكن سوية كانت عرضة لاختلالات متعددة ينجم عنها لا محالة خلل في معاني شعره ومضامينه وفي رؤيته التي تكون منقوصة من الرسوخ في النضج وفي التصورات وفي التقييم الذي ينبني عليها ويترتب.

مراجع البحث وإحالاته:

1 جميل صليبا، المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، سنة: 1979، ج: 2، ص: 398.

- 2 كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى سنة 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: 2003، ج: 06، ص: 251.
- ترجمة النعمان: شاعر، صحابي، من الولادة، ولم يول عمر احدا من قومه (بني عدي) لما كان في نفسه من صلاحه فكتب اليه عمر (بسم الله الرحمن الرحيم حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير)، أما بعد فقد بلغني قولك لعل أمير المؤمنين يسوءه، وأيم الله لقد ساءني ذلك وقد عزلتك ثم قدم عليه، وقال النعمان، والله ما كان من ذلك شيء، وإنما هو فضل شعر قلته؟ فقال عمرواني لأظنك صادقاً، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً، فرحل إلى البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات.
- 3 طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 04، سنة: 1982، م: 02، ص: 342.
- 4 عبدالله الطيب، مقال منشور في كلية الأدب بفاس، خاص بالمصطلح النقدي، ع: 04، سنة: 1988، ص: 245.
- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ط: 4، ج: 3، ص: 277.
- 5 حازم القرطاجني، المنهاج، دار الغرب الاسلامي، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت ط: 02، سنة: 1981، ص: 19.
- 6 حازم القرطاجني، المنهاج، ص: 20.
- 7 إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى ق 08، دار الثقافة، بيروت، ط: 02، سنة: 1978، ص: 545.
- 8 حازم القرطاجني، المنهاج، ص: 20.
- 9 إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 549.
- 10 محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، سنة: 1994، ص: 97/ 98.
- 11 عبدالصبور، حياتي في الشعر، دار اقرأ، بيروت، سنة: 1981، ص: 76.
- 12 اليزابيت درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة: ابراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، سنة: 1961، ص: 76.
- 13 أبو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام الهيئة، المصرية للكت، القاهرة، سنة: 2013، ص: 23.
- 14 السراج الطوسي اللمع، تحقيق: وتقديم عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، القاهرة، سنة: 1960، ص: 64، 65، 94.
- 15 عزيز السيد جاسم، متصوفة بغداد، شركة المعرفة للنشر والتوزيع، سنة: 1990، ص: 285، عبدالرحمان بدوي، شخصيات قلقة في الاسلام، ترجمها وألف بينها، دار النهضة العربية، القاهرة، ط: 02، سنة: 1964 ص: 72.
- 16 عبدالرحمان بدوي، شخصيات قلقة في الاسلام، ترجمها وألف بينها، دار النهضة العربية، القاهرة، ط: 02، سنة: 1964 ص: 72.

- 17 كما فهم من كلام الحلاج بأنه تمويه سياسي يقوم به أثناء الإعداد لخلع المقتدر وابن العماد الحنبلي هو الذي وسم الحلاج بالجنون. (شذرات الذهب ج2/254 ط القاهرة 1350هـ)
- 18 أبو حيان، رسالة العلوم ضمن رسائل ي حيان، تحقيق: ابراهيم الكيلاني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط01، سنة: 1985، ص: 321.
- 19 الاشارات لأبي حيان، تحقيق: عبدالرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم، بيروت، ط: 01، سنة: 1981، ص: 217.
- 20 المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط: 06، ص: 159.
- 21 إبراهيم الرماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 1987، ص: 347.
- 22 امبسون: seven types of ambiguity بحث نشره سنة 1913 كأطروحة دكتوراة في جامعة كمبريدج. انظر مجلة فصول المصرية، خالد سلمان مج 12/ص 189 أكتوبر 1986-1987.
- 23 جليل كمال الدين: الشعر العربي الحديث وروح العصر، دار العلم للملايين بيروت ط1 1964 ص 80